

مقدمة:

تقوم العلاقة بين المتكلم والمخاطب على الحوار والتواصل، وفق مقاصد محددة، وفي سياق معروف، ومن هنا جاء المنهج التداولي الذي يعنى باستعمال اللغة والسياق لوضع قواعد التخاطب للمتخاطبين، ويقصد بهذا المصطلح جملة القواعد والمعايير التي من المفترض أن يلتزم بها كل متكلم أثناء توجيه خطابه لغيره، وأول من فتح باب البحث في هذا القواعد هو بول غرايس في مقاله "المنطق والتحاور"¹

يرى غرايس أن كافة الاستلزامات التخاطبية متضمنة implicated، وأنه يقصد من الكلام البين "أن نتحدث عن أمر ما" أما المضمر فيراد به "أن نوحى لأحد الأشخاص بالتفكير في أمر ما". لكن السؤال المطروح هو كيف يمكن حمل شخص على التفكير في أمر لم يتم ذكره؟ في هذا الصدد يضع ديكرو المثال الآتي: "أقلع بيار عن التدخين" المحتوى صفر هو: "بيار لا يدخن حالياً" وهو موضوع فعل القول المعلن، المحتوى الأول: كان بيار مدخناً، والمحتوى الثاني: اقتد ببيار، وهما على العكس من المحتوى صفر المذكوران بشكل مضمر، إذ يستطيع المتكلم أن يدعي باستمرار أنه لم يقصد قولهما².

*القول المضمر:

المضمر Implicit كل مقصد غير مصرح به، ويفهم من خلال سياق الكلام، والقول المضمر "مفهوم تداولي إجرائي يتعلق برصد جملة من الظواهر المتعلقة بجوانب ضمنية خفية من قوانين الخطاب تحكمها ظروف الخطاب العامة كسياق الحال وغيره"³. ويقسم المضمر إلى الافتراض المسبق والمضمن وهو التقسيم الذي اعتمدته أوركيوني في كتابها "المضمر" وهو أقرب إلى المنطق والتقسيم الأقل تعقيداً:

أولاً: الافتراض المسبق:

الافتراض المسبق presupposition من أهم المفاهيم التداولية التي تتعلق بالجوانب الضمنية والخفية من قوانين الخطاب الذي يتم بين المتكلم والمخاطب في عملية التواصل، فلكل قول سياق، وتتوقف هذه الأقوال على العوامل الخاصة بالمتكلمين، وكذلك الخارجة عنهم⁴. إذ يوجه المتكلم خطابه لمخاطبه على أساس أنه معلوم لديه .

تعتبر أوركيوني أن "الافتراضات بمثابة المعلومة المدسوسة خفية، أي إنها تكون مزودة بملائمة تواصلية أقل شأنًا من تلك التي تتمتع بها المعلومات البينة، كما أنها تحتل مركزاً أدنى مرتبة داخل البنية الرقائعية التي يتألف منها محتوى الأقوال الإجمالي"⁵. حسب أوركيوني يندرج تحت مسمى الافتراض المسبق كل المعلومات التي لا تشكل، مبدئياً، موضوع الخطاب الحقيقي بل تستنتج تلقائياً

من صياغة القول التي تكون مدونة فيه بشكل جوهري، بغض النظر عن خصوصية النطاق التعبيري الأدائي.⁶ بمعنى أنه المعنى الذي يستنتجه المخاطب من المتكلم، أو يكون على دراية بها مسبقا.

يعتمد الافتراض المسبق على المتكلم، فعند التلفظ يتوقع من المتكلم امتلاك افتراضات مسبقة، قد تكون أكثر تحديدا، وقد تكون خاطئة كليا، ويتم إيصالها دون ذكرها في القول. يقوم الافتراض المسبق على أنه علاقة بين افتراضين في الجملة، كما أن إنشاء التضاد في الجملة بالنفي، لا يغير علاقة الافتراض المسبق. كما توصف خاصية الافتراض المسبق عموما بالاطراد عند النفي، أي إن الافتراض المسبق لجملة ما سيبقى ثابتا حتى عند نفي الجملة.⁷

1- بين أسلوب الحذف في النحو العربي والافتراض المسبق:

يظهر الافتراض المسبق في النظرية النحوية العربية في ظاهرة "الحذف" تلك الظاهرة التركيبية الواسعة الاستعمال، قد يتخذ منها المتكلم وسيلة فاعلة لبلوغ مقاصده، ويمكن تحديد الحذف بوصفه إسقاطا لبعض عناصر النص التركيبية في بعض المواقف التخاطبية، وهذه العناصر وجودها ثابت في البنى الأصلية كما تظهر في مقامات مختلفة.⁸ درس النحويون هذه الظاهرة واهتموا بها من جميع النواحي في مباحث خاصة متناثرة في مؤلفاتهم هنا وهناك إذ اهتم بها النحاة عموما في مواضع مختلفة، أي غير مصنفة في أبواب أو مباحث محددة، وأمثلتها كثيرة في كتبهم، إذ يعتبر أسلوب الحذف من أساليب التأويل النحوي، وواحدا من طرقه التي استخدمها النحاة لتبرير الاختلاف بين الواقع اللغوي والقواعد النحوية، وتبرير هذا الاختلاف في نظر النحاة يفضي إلى نتيجتين: صحة القواعد وسلامة النصوص.⁹ ومن تعريفاته عند النحاة الأوائل، تعريف ابن جني بقوله "قد حذفت العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه، وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته"، وهناك من النحويين من يسميه بالإضمار، كقول أبي حيان الأندلسي "وهو موجود في اصطلاح النحويين، أعني أن يسمى الحذف إضمارا".¹⁰

اتباع النحاة في تفسيرهم لظاهرة الحذف منهجا وصفيا، مستمدا من واقع لغوي، هو ما تعارف عليه أهل اللغة العربية في عاداتهم في الكلام.

يلجأ المتكلم إلى الحذف لأن المواقف الاتصالية تتطلب ذلك، حتى تصل الرسالة بوضوح إلى المخاطب، مستعينا بالسياق والعلاقات التركيبية، وقد أدرك النحاة العرب ما للحذف من أهمية في إنتاج الدلالة والتأثير في المخاطب¹¹، وباب الحذف واسع وأمثله لا حصر لها ومن ذلك:

1-1- الحذف بعد حروف النداء: المنادى عند سيبويه وجمهور البصريين مفعول به لـ "أدعو" مقدرا، فمثلا أصل "يا زيد" هو "أدعو زيدا" افتراض سيبويه أن أدعو حذف لزوما لكثرة الاستعمال ودلالة النداء عليه¹². وهو الشائع في كلام العرب فالمتكلم حين ينادي مخاطبه لا يشترط أن يستعمل الفعل أدعوك أو فعلا آخر بمعناه، إذ يفترض من المخاطب أن يستجيب له دون استعماله له فهو من

خلال السياق يفهم مباشرة ما يريد منه المتكلم. بمعنى آخر حين يحذف المتكلم الفعل "أدعو" فإنه "يفترض" أن المخاطب على علم به.

2-1- الحذف بعد إن الشرطية: مثال ذلك قول رؤية:

قالت بنات العم يا سلمى وإن كان فقيرا معدما قالت وإن¹³

هنا الافتراض أو المحذوف هو ما لم تصرح به "سلمى" أو المخاطب ، وهو ان كان فقيرا ومعدما كذلك رضيت به.

3-1- حذف الفعل: يفسر سيبويه القول "مرحبا وأهلا" بقوله "فإنما رأيت رجلا قاصدا إلى مكان أو طالبا أمرا فقلت: مرحبا وأهلا، أي أدركت ذلك، وأصبت فحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إياه"¹⁴، علل سيبويه حذفه اعتمادا على بعد تداولي لسياق الحديث، يتعلق بمعرفة المخاطب بمعلومات خاصة بعملية التلفظ¹⁵. من أمثلة حذف الأفعال لكثرة الاستعمال عند العرب أسلوب التحذير:

*التحذير: "هو إلزام المخاطب الاحتراز من مكروه بـ "إياك" أو ما مجرى مجراه، وإياك منصوب بفعل غير ظاهر في إفراده، ولا في عطف عليه، فالتحذير به أكثر من التحذير بغيره، فجعل بدلا من اللفظ بالفعل، والتزم معه الإضمار مطلقا"¹⁶. منه قوله تعالى: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ (الآية 13/ سورة الشمس). نصبت "ناقاة" على التحذير¹⁷، والتقدير (حذرهم إياها) ، ولو رفع على ضمير نحو (هذه ناقاة الله) فيه معنى التحذير أيضا ، استدل النحاة على قول العرب " هذا العدو فاهربوا " و" هذا الليل فارتحلوا " وكلاهما يحمل معنى التحذير.¹⁸ الأمثلة المبثوثة في كتب النحو وفيرة كثيرة وكلها تفضي إلى نتيجة واحدة، أن العرب قديما تطرقوا إلى الأساليب التي ندرسها اليوم تحت مسمى الدرس اللساني المعاصر.

قسم سيبويه الأفعال إلى ثلاثة أقسام منها: "فعل مظهر لا يحسن إضماره، وفعل مضمر مستعمل إظهاره، وفعل مضمر متروك إظهاره، يحكم هذا التقسيم قواعد سياقية، إن أوجب السياق ذكر الفعل لجعل المخاطب به وجب ذكره، أما المواضع التي يحذف فيها الفعل مع القدرة على ذكره، حدد لها سيبويه شرطا وهو علم المخاطب بالفعل، وضرب مثاله، قول الله تعالى: {قُلْ بَلْ مَلَّةٌ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (سورة البقرة، الآية 135) أي بل اتبع ملة إبراهيم حنيفا، ردا على {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا} (سورة البقرة، الآية 135)¹⁹.

من مظاهر الحذف في النحو أيضا، حذف الاسم وهو كذلك باب واسع، وأمثله كثيرة، وهو كالاتي:

4-1- حذف الاسم: من مظاهر حذف الاسم، حذف المبتدأ، الصفة، المفعول به، والمضاف...

1-4-1- حذف المفعول به: يرى عبد القاهر الجرجاني أن حذف المفعول يكون لأغراض منها:

الاقتصار على أصل الفعل بغض النظر عن وقع عليه الفعل، ومثاله قوله تعالى: وَأَنَّهُ

﴿هُوَ أَضْحَكٌ وَأَبْكِي ٤٣﴾ وَأَنَّهُ ﴿هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا ٤٤﴾... (سورة النجم الآيات 43، 44). في تفسير الطبري: "يقول تعالى ذكره: وأن ربك هو أضحك أهل الجنة في الجنة بدخولهم إياها، وأبكي أهل النار في النار بدخولهموها، وأضحك من شاء من أهل الدنيا، وأبكي من أراد أن يبكيه منه".²⁰ فحذف هنا المفعول به مرتين، وما يدل عليه هو السياق العام للآية الكريمة.

كذلك يحذف المفعول لغرض وقصد معلوم، إلا أنه يحذف من اللفظ لدليل الحال عليه، فإما أن يكون القصد من حذفه البيان بعد الإبهام، ويحدث هذا بعد فعل المشيئة بعد (لو) وبعد حروف الجزاء، منه قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى...} (سورة الأنعام/الآية 35)

ومن أسباب حذف المفعول به أيضا دفع توهم المخاطب، أو للاختصار، ومثال هذا الآية الكريمة: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءٌ مَدِينٍ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (سورة القصص/ الآية 23) هنا حذف المفعول به من (يسقون) و(تذودان) لأن الغرض هو الفعل وليس المفعول به، "ألا ترى أنه رحمهما لأنهما كانتا على الزيادة، وهم على السقى، ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم، ومسقيهم إبل مثلا"²¹ وأمثله كثيرة في القرآن الكريم وفي كلام العرب.

من مظاهر حذف الاسم أيضا:

1-4-2- حذف المبتدأ والخبر: أجاز النحاة حذف المبتدأ والخبر إذا دلت عليه قرينة لفظية أو معنوية، وأشار إلى هذا ابن مالك في الألفية :

وحذف ما يعلم جائز كما تقول زيد بعد من عندكما وفي جواب كيف زيد قل دنف فزيد استغنى عنه إذ عرف يحذف كل من المبتدأ والخبر إذا دلَّ عليه دليل جوازاً أو وجوباً. فمثال حذف الخبر أن يقال (من عندكما) فتقول (زيد) التقدير (زيد عندنا)، ومثله في رأي (خرجت فإذا السبع) التقدير: فإذا السبع حاضر. ومثال حذف المبتدأ: كيف زيد؟ ويكون الجواب (بخير)، ومثاله قوله تعالى: {مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيْئًا بِالْأَسْنَتِهِمْ وَطَعْنًا...} (سورة النساء/ الآية 46) هنا حذف المبتدأ، الآية إذ رأى سيبويه وأبو علي الفارسي أن (من الذين) خبر مقدم والمبتدأ موصوف محذوف، والجملة الفعلية (يحرفون) في محل رفع صفة، والتقدير (قوم يحرفون) قوم هو المبتدأ المؤخر المحذوف. واستشهد سيبويه بكلام العرب كقول النابغة:

كَأَنَّكَ مِنْ جِمَالِ بَنِي أَقْيَشٍ يُفْعَعُ خَلْفَ رَجْلَيْهِ بِشَنْ²²

أي كأنك جمل من جمال بني أقيش أي يقصد أنه جبان، فجماهم تنفر من كل شيء تراه²³. وهنا افترض الشاعر أن للمخاطب كفاءة تداولية تجعله يدرك مواقع الحذف منطلقا من سياق القول وملابسات المقام، كذلك اشتراك المتكلم والمخاطب في معرفة سابقة أي جمال قوم بني أقيش التي تنفر من كل شيء تراه، فالجاهل بهذه المعلومة لا يمكن أن يفهم البيت ويصل إلى المعنى المراد وهنا تظهر أهمية السياق التي فطن لها العلماء الأوائل وهو بعد تداولي بامتياز.

1-4-3- حذف الصفة وجعل الموصوف محلها: منه قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى ، عليه السلام ، وما كان أنكر ظاهره وقد أظهر الله الخضر ، عليه السلام ، على باطنه فقال إن : السفينة إنما خرقتم لأعييها ، لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة يأخذ كل سفينة صالحة ، أي : جيدة غصبا فأردت أن أعيبها لأرده عنها لعييها ، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيره²⁴، الافتراض المسبق هنا أو المحذوف أن الملك لا يأخذ إلا السفن الصالحة بحكم أن المخاطب على علم بأن السفينة صالحة، فحذفت هذه الصفة وبقي مكانها الموصوف (السفينة) لغرض الإيجاز والاختصار. وهنا أيضا يظهر دور السياق بمعرفة أطراف الخطاب بأمر الملك الذي يستولي على السفن الصالحة ويترك غيرها، وهو أيضا جانب مدهش من إعجاز كلام الله جل ذكره.

2- تداولية التعريف والتذكير:

نجد مفهوم الافتراض المسبق متداول أيضا عن النحاة الأوائل متمثلا في "التعريف والتذكير" أسلوب عني به النحويون ، فلا يكاد يخلو منه مؤلف من مؤلفاتهم فاهتموا بها ووضعوا لها الضوابط، وتناولوا أقسامها ودلالاتها ووظائفها في الجملة العربية، إذ يرتبط هذان المفهومان بمدى معرفة المتكلم والمخاطب بموضوع الحديث، إذ يختار المتكلم ما يريد أن يبلغه للمخاطب الذي يفترض به العلم به أو الجهل به، فإذا كان المتكلم على علم بمعرفة المخاطب بموضوع الحديث استعمل الاسم معرفا ب "ال العهدية" لأنها تشير إلى ما له علم مسبق به على عكس التعريف بالإضافة التي تضيف إلى الاسم بعض المعلومات التي كانت مجهولة لدى المخاطب²⁵. وال العهدية قد تكون ما دخلت عليه متقدما لفظا ، أي على الاسم السابق ذكره نكرة كقوله تعالى: ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ (سورة المزمل/ الآية 16) إذ تقدمت ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ (سورة المزمل/ الآية 15). وحاضرا مبصرا كأن يقال لأحد سدد سهما أو كان حاضرا في العلم "القرطاس" أو على اسم يستدعي صفة لمذكور سبق كأن يبلغ عن زيد شتما فيقال "إن السفينة يفعل هذا"²⁶. أما إذا لم يكن المخاطب على علم بموضوع الحديث وحيثياته،

وكانت المعلومات حوله قليلة أو معدومة، لجأ المتكلم إلى النكرة دون تعيين، وهنا يلجأ المخاطب إلى الاستفسار للوصول إلى حقيقة الشيء.²⁷

هذه بعض الأمثلة مما ورد في كتب اللغويين الأوائل عن ظاهرة الحذف، والتعريف والتنكير، ويظهر أن تحليلهم لا يختلف عما عرضه رواد التداولية الغربيين فيما يخص الافتراض المسبق الذي يعنى بدراسة المعارف المشتركة بين المتكلم والمخاطب أو بين ما يجب أن يكون معلوما بينهما قبل العملية التخاطبية، أو ما يعتبره المتكلم أرضية مشتركة مسلماً بها عند أطراف المحادثة²⁸

ثانياً: القول المتضمن Presumed:

يشمل المتضمن "كل المعلومات القابلة للنقل عبر قول معين والتي يبقى تفعيلها خاضعاً لبعض خاصيات السياق التعبيري الأدائي" فجملة مثل "إنها الساعة الثامنة" قد تضمّن عدة معان حسب سياق قولها، مثل أسرع أو لا تستعجل، وتكون بمثابة القيم المتقلبة التي يمكن إبطالها، وهي لا تفعل حقاً إلا في ظروف معينة ولا يسهل تحديد معالمها دائماً، وهي في نظر أوركيني، قيم مدرجة حقيقة في القول، ولا تعتبرها أفعال كلام فردي صرف، حتى وإن تطلب فك ترميزها أن تتدخل الكفاءات الموسوعية والبلاغية التداولية التواصلية للشخص الذي يفك الترميز إلى جانب الكفاءة الألسنية اللغوية التي يتمتع بها.²⁹

1-طبقات القول المتضمن:

1-1-نمط ترسيخ المتضمن: وذلك لمعرفة إن كان مباشراً أو غير مباشر، ويتحدد أولاً إن كان نبرياً أو معجمياً أو نحوياً، فمثلاً اسم النكرة (بعض)، وحروف النفي، وشكل الجملة الزمني، البنى التفخيمية مثل (أنا من)، تشكل المصادر التي تستمد منها الاستدلالات المتنوعة.

2-1-تكون المتضمن: يستوجب استخراجها لجوء المخاطب، إلى كفاءتيه المنطقية والبلاغية التداولية التواصلية، فضلاً عن كفاءته الألسنية اللغوية.³⁰

3-1-طبيعة محتوى المتضمن: من الشروط التمهيديّة لفعل الإخبار والتأكيد أن يتحدث المتكلم عن خبرة أي أن يستمد معارفه من مصدر ما، التجربة الشخصية، مثلاً، أحد هذه المصادر، ومن المضمنات الإلماح، والتلميح. الإلماح هة قول متضمن مبال إلى الأذى، مثل "هل ارتكبت مجددا قصيدة شعرية؟" والجواب على هذا السؤال: إلام تلمح؟ إلى أن كل قصائدي رديئة؟

أما التلميح، فيستعمل في ظروف متنوعة، ومحددة نسبياً في نفس الوقت، مثلاً في حالة مضمن غير لائق، أو حين وجود أقوال تشير بشكل مضمر إلى حدث أو عدة أحداث ينفرد بمعرفتها أطراف العملية الكلامية فقط، أو يعرفونها بوجه الخصوص. وكذلك تلميح البلاغة الكلاسيكية³¹. والعارف بعلوم البلاغة العربية يعرف أن لهذه المفاهيم مفاهيم أخرى كثيرة تقابلها، منها المجاز والكناية والاستعارة...

وأسلوب "التعريض" كمقابل للتلميح الذي تحدثت عنه أوركيوني، وهو أسلوب جميل ممتع وطريف، فريد من نوعه كسائر أساليب العربية.

2-تداولية أسلوب التعريض:

يقابل التلميح، أسلوب التعريض في اللغة العربية، اهتم به البلاغيون، واحتفوا به، فالعرب يستعملونه في كلامهم بكثرة، فيبلغون ما يريدونه بوجه أطف وأحسن من الكشف والتصريح، أي هو ضد التصريح، وهو "أخفى من الكناية، لأن دلالة الكناية وضعية من جهة المجاز، ودلالة التعريض من جهة المفهوم المركب، وليست وضعية، وإنما يسمى التعريض تعريضا لأن المعنى فيه يفهم من عُرِض اللفظ المفهوم أي من جانبه"³² وهو "أن تذكر معنى تدل به على معنى لم تذكره" هناك من البلاغيين من يجعله ضمن أقسام الكناية، وهناك ومن يجعله نوعا بلاغيا مستقلا بنفسه.

وفي اصطلاح البلاغيين هو "المعنى الحاصل عند اللفظ به" وهنا يشمل المعنى الحقيقة والمجاز والكناية، ويحصل التعريض بغير اللفظ أي بالسياق وقرائن الأحوال، فالتعريض أن تذكر شيئا لتدل به على شيء لم تذكره، فاللفظ في التعريض مستعمل في معناه للتلويح به إلى غيره³³، وأمثله كثيرة في القرآن وكلام العرب من بلغاء ومنه ما ورد في الشعر أيضا: منها قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (سورة الأنبياء/الآيتان 62-63). فهنا سيدنا إبراهيم عليه السلام تهكم عليهم وسخر من عقولهم بمعنى مضمن لم يصرح به. فهو من قام بتحطيم آلهتهم وترك كبيرهم، وحين سأله قومه أنت فعلت هذا بالهيتنا، أجاب معرضا بل كبيرهم، فجعلهم في حيرة من أمرهم، فإن أنكروا مستدلين بعجز صنم عن فعل ذلك يكونون قد اعترفوا بأنه ليس اله ولا يعدو أن يكون صنما عاجزا.

أما التعريض في الشعر فهو كثير أيضا، نجده في مختلف الأغراض من مدح وهجاء وفخر وغيرها، ومن أمثله الكثيرة ما جاء على لسان المتنبي فأسلوبه في التعريض فريد من نوعه بإجماع النقاد، ومن أشعاره:

لا تطلبن كريما بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يدا خُتِموا
ولا تبال بشعر بعد شاعره قد أفسد القول حتى أحمَد الصَّمم³⁴

في البيت الأول يقصد المتنبي "سيف الدولة" معرضا أي لا تطلب كريما بعد الأمير، أما في البيت الثاني فيقصد نفسه وعلى علاقة بالبيت الذي قبله، ويقصد مخاطبا سيف الدولة أنه سيرحل عنه، ولن يجد له نظيرا بين الشعراء.

يتجلى التعريض أكثر في شعر المتنبي في مدائحه لكافور ، فيقول في هذا ابن جني، فهو أول من فتح باب القول في أن مدائح المتنبي في كافور مبطنة بالهجاء، وأن الازدواج فيها كان مقصودا. وهو ما يثبته هجاؤه لكافور فيما بعد حين قال:

ولولا فضولُ الناسِ جئتُك مادحا بما كنتُ في سري به هاجيا

فأصبحت مسرورا بما أنا منشد وإن كان بالإنشاد هجوك غاليا³⁵

هذه المدائح المبطنة هجاء، يدرك الذي يقرأ للمتنبي أنها في الحقيقة سخرية وتهكم، صحيح أنها مدح صريح إلا أنها ممزوجة بصور فخروتعال إذ يقول في مطلعها :

أغالبُ فيك الشوقَ والشوقَ أغلبُ وأعجب من ذي الهجر والوصلُ أعجبُ³⁶

ثم ينصرف إلى مدح كافور بهذه الأبيات:

وما طربي لما رأيْتُك بدعةً لقد كنت أرجو أن أراك فأطربُ

وتعذلي فيك القوافي وهمتي كأني بمدحٍ قبل مدحك مذنب

ولكنه طال الطريق ولم أزل أفش عن هذا الكلام وينهبُ³⁷

أليست هذه سخرية ظاهرة وتعريضا واضحا؟ وأمثلة التعريض كثيرة في كلام العرب إلا أنها في شعر المتنبي فريدة من نوعها، وبإجماع النقاد فهو كما قال ابن رشيق القيرواني " ...ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس " .

الخاتمة:

كانت هذه الأمثلة القليلة ،مقارنة بما جاء في كتب النحو والبلاغة، دليلا على فطنة علماء اللغة الأوائل، وعلى أصالة النحو العربي وعلوم اللغة العربية، فما حلله التداوليون الغربيون حديثا وكان نقلة كبيرة في الدرس اللساني الحديث، تطرق له النحويون والبلاغيون منذ مئات السنين، تطابقت دراستهم لظاهرة الحذف، والتعريف والتنكير مع الافتراض المسبق كالمفهوم التداولي ، ومفهوم التعريض مع مفهوم المضمن، بل وفاقتهما دقة وتنوعا، مما يدفع إلى المزيد من البحث والتحليل لعلوم اللغة العربية، فإننتاجهم لا يحتاج منا إلا إظهاره بالتحليل والدراسة فلم يتركوا بابا إلا وتناولوه بالشرح والتحليل بالدليل والبرهان .

5. الهوامش:

¹ عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب- مقارنة لغوية تداولية- دار الكتب الجديد المتحدة، ط1، بنغازي، 2004، ص 96.

² كاترين كيبريرات أوركينيوني، المضمر، ترجمة: ريتا خاطر، ط1، بيروت، 2008، ص 38-39.

- ³ مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 2005، ص30.
- ⁴ محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة المصرية، مصر، 2006، ص14.
- ⁵ أوركيوني، مرجع سابق، ص 44-45.
- ⁶ نفسه، ص 48.
- ⁷ جورج يول، التداولية، ترجمة: قصي العتاي، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، بيروت، 2010، ص 53.
- ⁸ بدرية ناصر علي ومحمد ميثم، الافتراض المسبق في النحو الكوفي، مجلة كلية جامعة الكوت، الجامعة المستنصرية، المجلد 4، العدد1، 2019، ص 87.
- ⁹ علي أبو المكارم، الحذف والتقدير في النحو العربي، 2007، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط9، ص 204.
- ¹⁰ رحيمة أوسيف، ظاهرة الحذف في القرآن الكريم دراسة تطبيقية في سورة النساء، ص146.
- ¹¹ أحمد فهد صالح شاهين، النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط1، إربد، الأردن، 2015، ص72.
- ¹² نفسه، ص212.
- ¹³ نفسه، ص213.
- ¹⁴ سيبويه، الكتاب، ج1، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة، 1988، ص 295.
- ¹⁵ أحمد فهد صالح شاهين، مرجع سابق، ص72.
- ¹⁶ ابن مالك الأندلسي، تحقيق، عبد المنعم هريدي، شرح الكافية الشافية، ج3، دار المأمون للتراث، ط1، 1982، ص 1377.
- ¹⁷ نفسه، ص1380.
- ¹⁸ نفسه، ص1381.
- ¹⁹ أحمد فهد صالح شاهين، مرجع سابق، ص 72.
- ²⁰ جامعة الملك سعود -المصحف الالكتروني، <http://quran.ksu.edu.sa/tafseer/katheer/sura18-aya79.html>، تم تصفحه يوم: 10-01-2020، ص 527.
- ²¹ فؤاد علي مخيمر مخيمر، فلسفة عبد القاهر الجرجاني النحوية في دلائل الإعجاز، دار الثقافة للنشر والتوزيع، د.ط، القاهرة، 1983، ص 273 وما بعدها.
- ²² محمد بن حسن شرّاب، شرح الشواهد الشعرية في أمهات الكتب النحوية لأربعة آلاف شاهد شعري، ج3، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 2007، ص297.
- ²³ نفسه، ص 297.
- ²⁴ جامعة الملك سعود -المصحف الالكتروني، <http://quran.ksu.edu.sa/tafseer/katheer/sura18-aya79.html>، تم تصفحه يوم: 10-01-2020، ص 302.
- ²⁵ رشيد حيدرة، تداولية الخطاب النحوي بين الضابط القواعدي والاستعمال الوظيفي، إشراف: بلقاسم براهيم، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه علوم في اللغة العربية وآدابها، جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم، السنة الجامعية 2017-2018، ص195.

- ²⁶ أبو حيان الأندلسي، ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق: محمد عثمان، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، ص112.
- ²⁷ رشيد حيدرة، مرجع سابق، ص195.
- ²⁸ جورج يول، تحليل الخطاب، ص 37
- ²⁹ كاترين أوركيوني، مرجع سابق، ص 74-75،
- ³⁰ نفسه، ص81-83.
- ³¹ نفسه، ص 83 وما بعدها.
- ³² منصور الثعالبي، الكناية والتعريض، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، تحقيق: عائشة حسين فريد، د.ط، القاهرة، 1998 ، ص 54.
- ³³ نفسه، ص56.
- ³⁴ أحمد بن حسين الجعفي أبو الطيب المتنبي، ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1983، ص 424
- ³⁵ إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط4، 1983، ص 281.
- ³⁶ المتنبي، الديوان، ص 470.
- ³⁷ نفسه، ص 470.